في صالة بخعازي معرض الفنان مصطفى حيدر «مائيات الذاكرة والجنوب»

الطبيعة برؤيا مشرقة ونمنمة شفافة

احدى وستون لوحة بالإكليرليك وموتيفات بالقلم من دفتر الرسام الفنان مصطفى حيدر الذي افتتح معرضه بتاريخ ٣/١٠، ويستمر حتى ٣/٢٢ وفيه تجربة فنية من طبيعة الجنوب اللبناني، برؤيا لونية اشراقية، ولوحات منمنمة شفافة، من حيث طبيعة المادة التي يتعامل معها. وهي حساسة في تنفس الضوء، وبثه الى عين المشاهد، وترك التأثير المباشر وغير المباشر عليه، فيما لوحات الفنان ميالة الى انفجارات لونية، من ذاكرة الجنوب، لا تسلم الطبيعة من هذه الانفجارات حيث تتلامح وتلتمع في فضاءات نصوصه التشكيلية تلك الاهتزازات والارتجاجات والتبعثرات والتراقصات اللونية، وفي هذه النصوص شقوقات وصدوعات بالأبيض تدفع بحركية اللوحات الى حيويتها، والرهافة المعتمدة في تناول الطبيعة من محتويات الأرض الى الأفق والمدى والسماء، والبحر وما بين ذلك من فضاءات متغاوية تمحض اللوحات غبطة وحبورا، وتهبها لذة فنية، ومتعة جمالية تستهوي النظر وتستهوي البصيرة كي تدرك وتتدارك مرامي الفنان في اعماله، خاصة وان اللعب الفني الماجن المغوي، واضح في اللوحات كما ان العين الطفولية، وهي تفتش عن مراحها ومهادها، وأماكن لهوها وحنينها، هي التي انفلتت في هذه الأعمال، وكأن الفنان أطلقها من عقالها، وذهب بها كل مذهب عبر الجهات التي تتراءى له الآن هنا وهناك، والتي تستحضرها الذاكرة من أزمنة ماضيات.

وكان الفنان مصطفى حيدر وهو من مواليد بعلبك لا يكتمل وجوده إلا في الجنوب، فيعمل أحافيره البصرية الضوئية في ترابه وبحره وسمائه وأرضه، ويرسم الجسد الانساني العاري، كأنما من خصوبة الجنوب وترويته يمنحه تلك الأنوثة باشكال إغوائية جمالية، فيها من تقنيات الألوان المائية وعنصر الماء والسيولة، ما فيها من الأنوار والظلال التي يغدقها عليها، وهو يعترف منذ طفولته بانه عاشق النور، يلحق به عبر تسريح بصره في الفضاءات التي تلهبها الشموس، وفي ربيع الطفولة وكل فصولها، حيث يشعل في صيفها وخريفها حرائق لونية، يتوزعها في اللوحة على شكل قطع لونية، ومشحات كالشهب والنيازك، وهو في تلقائية تناوله لتلك المشهديات الطبيعية التي يتداخل ويتخارج فيها، يغلب أساه ممتزجا بفرحه وبكائه فيها او ينغرس عميقا في توهجها وتألقها، او في ضبابها وشبحيتها، لكن الإفصاح عن تلك المشهديات كان نضرا محتدما عارما بالنجاجة والحضور الشجي وكمية الحنين المشفوع بذاكرة تسترجع وتستولد، ولا تنسى.

فيما الاحتراب والاحتدام يدوران بين الألوان الحارة والألوان الباردة، وهو يسعى الى اقامة توازن ويحتكم الى تنويع قبائل هذه الألوان وعشائرها، ومستندة في ذلك الوان قوس قزح واشتقاقاتها. وكيماوياتها وينجح في اقامة الانسجام فيما بينها. ويستعين بالحدود والتخوم البيضاء، كي يبقى على سلامها، وهي في كل الأحوال، وكيفما كانت خفيفة رقيقة، صافية مبرمة في احتكامها للغريزة التي تصفيها، وتخمرها وتلقيها في عراء اللوحات كيفما رأت عين الفنان ويده مناسبتها للمقام والحال التي هي فيه، حيث اللوحات مقسومة أفقيا الى حيثيات وتفاصيل، تستند الى فضاء يحتل اكثر من نصف اللوحة احيانا، ويهبها اختزالا معقولا، ويترك ما فيها مستلقيا او مستفيضا براحة. وكأنه كتلة تتعاضد مع كتلة، وتختزن قوة فنية، وحساسية ومشاعر، تهبها الشفافية المائية الدقيقة التي لا تسلس قيادها، إلا لفنان لديه اختبارات طويلة وخاسرة حاسمة في هذا المجال، حتى تاتي المناخات وكأنها جميعها مغسولة بالماء. وما زال الماء فيها الا انها منازل واشجار، وحدائق وايحاءات اعشاب وأزهار، وتلال وجبال، وبحر، وسماء، وجواءات تصل في جماليتها حد الأحلام رغم الواقعية المبرمة فيها، إلا ان الذاكرة تستحوذ على بعضها وكانها تبزغ بها من عوالم نورانية حلمية وردية، معممة بالأزرق والأخضر والأصفر. والأحمر والبرتقالي وهي يقظة غير ناعسة، وهي مشرقطة بمشحات لونية حارة تهبها طاقة الممكن والمستحيل.

إلا ان للفنان كما يبدو في معرضه هذا شغفه اللوني والتصويري الذي ياخذ بملوانته ومناظره كل مأخذ، فهو يجود بها ويجودها، ويمارس فيها الغناء والتطريب، ويموسقها لونيا، ويتداخل فيها بالهارموني، ثم يحشدها بالايقاعات، وبالمرئي واللامرئي فيها، كما وانه يشحنها بالانفعالات وكأنه في تدارسه للضوء داخلها، يريده ان يكون أبديا وألا يعتم ويتحول حتى انه يغذيه بأنواره

□ من المعرض□

الداخلية التي تهبه هذا السطوع والتوهج، وتستحضره العين من مكان ما ومن كل مكان، وكان اضواء الألوان القزحية العارية لا تكفيه فيساعفها بإشعاعات من عنده، وبذلك تطرى اللوحة وتصير قريبة الى القلب، لأن ضوءها في مدار الغواية، وفي التجاذبات والتنابذات التي تستأثر بالروح البشرية، وتهب النفس اشراقا لونيا ملتئما ملتغما، ومختلفا متباينا لكنه اشراق فيه من الصبابة والاغتلام ما فيه، وكانه تصعيد لحياة تمضي، تمحي وتزول.

وهو كما الأطفال يتشبث بهذه المشهديات يقبض عليها في لحظات تجليها، فيتجلى فيها ولا يريدها ان تزول، وكأنها جنائن حلمية او فردوس طبيعي مفقود، يرغب في استرجاعه وهو يعمره مشهدا مشهدا في لوحاته ذات النكهة الطبيعية الجنوبية، التي يحن الكثيرون اليها، ويتوقون الى استرجاعها ويعملون على إزالة الظروف القاهرة التي ابعدتهم عنها، والفنان كانما يغامر تجاه هذه الطبيعة المتحولة المنكوبة بالقذائف والحرائق والدمار، لكنها حية حيوية متوثبة متوفزة، كما قرأها الفنان بابجديته التشكيلية واللونية، وكما اهتدى الى مفاتيح أسرارها، فجاهد كي يهبها طقوسية حياتية تقاوم القحل والموات، ووهبها قداسة وتعبدا وبوحا وضراعات، وصلوات في أحنائها، خاصة وان عنصر الماء فيها دافق غزير، والماء أصل كل شيء حي، تلك من دلالات النص التشكيلي الذي يتطارحه الفنان على نفسه أولا، وعلينا ثانيا، ولا يتوانى عن جعله ايقونته الدائمة في معرضه، وكأن لا غنى عنه كموضوع شهي وحي، لأن اللوحات الأخرى ايضا منمنمات وتفاصيل منه. كذلك اللوحات العارية تجري مجرى الطبيعة، وإن كان الخط والشكل والهيئة والأضواء والظلال تأخذ مسارات اخرى عارمة بالأنوثة التي يحاول استكشاف مكنوناتها وهو لأنه عاشق يتماهى بلوحات المرأة، وكانها اجمل مخلوقات الله وهي مخلوق طبيعي، ولا وجود لشموس فيها لأنها الشموس، والشمس التي يتفيأ مصطفى ظلالها يتراشق ضياءها وأشعتها، اشفاقها واغساقها في فضاءاته التشكيلية.

ومشاهد المعرض فيما لو تأمله. لانفتحت امامه آفاق مدرسة الطبيعة اللبنانية في التشكيل، وخاصة بالوان الإكواريل والرواد أطلوا عليها كثيرا، وأسسوا وجذروا العناصر التي تغتني فيها مثل هذه الأعمال خاصة لجهة الضوء المتوسطي الذي يعذب ويترقرق ويشف،ويخف ويعلن عن نفسه وجوهره في الألوان الحارة ، وينغمد ويتخافى في الألوان الباردة. لكن دون سماكة تذكر، حيث السماكة اللونية في لوحة الإكواريل غير مستحبة، لذلك شف الفنانون الذين تناولوا الطبيعة بالوانهم والتي دلت على أمزجتهم واهوائهم في الألوان وعلى إشراقات ارواحهم في رحاب هذه المشهديات التي لا تتناهى والتي غدت تقليدا مهما على صعيد فني وجمالي.

ان تجربة الفنان رغم اهميتها وتنوعها وشبهاتها الحداثية، تقع في تلجلجها وحيرتها، بسبب استنسال وتوليد مشهديات الطبيعة التي ربما افضت الى رتابة يتخارج منها الفنان بسهولة احيانا، وصعوبات احايين اخرى، خاصة لجهة تحريك الأشكال والألوان والتباس الأرض بالسماء، وتغيير الطرائق اللونية المعتادة في بعض الحالات، وهذا ما سبب الغنى المشهدي واللوني في اعماله، التي تسير حثيثا، الى الأمام رغم انها في الحيز الطبيعي وفي حيز الذاكرة، والجنوب اي الواقع الراهن، وهو في تفاضله وتمفصله مع اعماله يكشف نصاعتها، ونظافتها ويتحكم بقوانينها اللامرئية، بحيث تتراقص ريشته في عرائها وتضخ الوانها بحرية من يذهب في الأثير والهواء، ويستخرج منهما الأضواء والظلال التي تجعل اللوحة بازغة اكثر مما هي عليه.

وفي الهيجان النفسي والتوتر والانشداد، تذهب النصوص التشكيلية الى التقارب والتباعد فيما بينها، رغم صدورها عن محرق ضوئي ولوني واحد، إلا انها تتبدل وتتبادل مواعيدها، وشؤونها وشجونها، وتتبادل الحديث والحوار فيما بينها عبر أبجدية الألوان التي يتكون الفنان فيها، ويكونها في اعماله، لأنها سبيله الى التعبير الفني عما يجيش بخاطره، وعما توسوس روحه، وعما ترى عينه، وترعى ذاكرته من الطبيعة وغيرها على حد سواء.

زهير غانم

- معرض الفنان مصطفى حيدر
- صالة بخعازي «الأشرفية»
- ٦١ لوحة بالألوان المائية